وردتان لن تأكلهما العصافير

أخبرتني العرافة بأني سأسقط بعد أن تسقط ورداتي السبع.

لم أفهم، ظللت أتطلع في وجهها المثقل بتجاعيد، وكحل كثيف حول عينيها لا يزول. لم تتكلم ثانية، أعادت إليّ كفي بعد أن نسيته معها، تعيد شعرها الأشيب للوراء وهي تعتدل في جلستها.

كان الجو باردًا، لم تتوقف الأمطار منذ الأمس. الرعد يدوِّي من بعيد لينفجر بعدها فوق رؤوسنا. أشعر بالبرد، ورجفة مجهولة تتحرك بطول ظهري.

«ما معني سقوطي؟» تنظر إليَّ عبر إطار الكحل السميك في وجهها، ولا ترد.

«وما معنى ورداتي السبع؟». مزيدًا من الصمت ذي الطنين المزعج؛ فقط تنظر لي طويلًا بعين لا ترمش. تتأملني كلي وتجاعيد وجهها تزداد ضراوةً وتوحُّشًا. أشاحتْ بوجهها فجأةً، وهي تشير لي بالانصراف. «عمومًا، أنا لا أصدق ما تقولون». هكذا تمتمتُ بخفوت وضيق وأنا أهبُّ من مكاني أمامها. أشـمُّ رائحـة بخور بعيد، ابتعدتُ عنها بخطـوات قليلة مترددة، تطلعتُ إليها ثانية؛ لكنَّها كانتْ تنظر لأسفل، ولم تنظر لي مرة أخرى.

– هاه. ماذا قالتْ لك؟

نسـيتُ أن زوجتي جاءتْ معي، تنتظرني بعيدًا عن مرمى السـمع كما طلَبتْ منها العرافة. نظرتُ لها وحاولتُ الابتسام لكني فشلت. ظلَّتْ نظرتي جامدة دون أيِّ تعبير على وجهـي. كان هذا اقتراحها. بالذهاب للعرافة التي سـمعت عنها من إحدى صديقاتهـا. اقترحَتْ أن نذهب لتخبرنا بما لا نعرف.

– هذا دوري إذن.

قالتها وهي تسـحبني معها من كفِّي، واتجهتْ للعرافة التي لم تنظر لي كأني لستُ موجودًا. ركزتْ نظرتَها وكلامها معها.

– لن أقرأ كفَّكِ اليوم، لقد انتهيتُ. ولكن..

سحبتْها من كفها المفرود ناحيتها، وهمستْ في أذنها بفحيح مسموع:

– لتظلي معه؛ فقط هذا آخر ما سأستطيع أن أقوله.

لم تكن تفهم شيئًا، فصمتت وهي ترجع للوراء بحيرة، وتقوم بسحبي ثانية من يدي وهي تبتعد كأني ابنها، وتقول:

– دعنا نلحق الطريق قبل الحظر.

***

أحصيتُ عدد الورود في شرفتي. كانت سبع وردات. ظللتُ أتأملها قليلًا. محاولًا إقناع نفسي بأنها صدفة. مجرد صدفة ليس إلا. متناثرات في أرجاء الشرفة بين الزرع الكثير المنتشر. تقف زوجتي جانبي تتأمل معي، لم تفهم هي أيضًا معنى السقوط. تربتُ على كتفي بحب وهي تهمس لي ألا أقلق.

– سنحافظ على الزهور بقدر الإمكان.

كان الجوُّ عاصفًا. الزرع كله يتحرك بجنون كأنه سيطير. اقترحتْ هي أن نقوم بنقلها للداخل، لم أرد. توقف عقلي عن العمل، شعرتُ بأنني عاجز تمامًا عن التفكير، لم أكن أهتم فيما سبق بمثل هذا الكلام؛ أن أستمع لعرافة، أو أن أقرأ الطالع. لكن نظرتها كانت تبتلعني، تبتلع العالم كلَّه ولا تترك به سواي داخل إطار الكحل مع هاتين العينين اللتين تعرياني. ارتجفتُ، ربما من الهواء العاصف، أو من عينيها اللتين لم تذهبا من أمامي.

نظرتُ إلى أصص الزرع الضخمة. التي تملأ الأرض والسور وورودي المتناثرة بينها. ووجدتُ أنه من الصعب؛ إن لم يكن من المستحيل نقلها من مكانها. شيءٌ ما يراودني لأقوم بتجاهل كل هذا كأن لم يكن؛ إلا أن نظرتها وصوتها كانا يربكاني حقًا.

جاءتْ من خلفي، وربتتْ على ظهري، وبابتسامة واسعة قالت:

– لا تقلق.

نظرتُ لها شاعرًا بشيءٍ يجثم فوق صدري، حاولتُ أن أتكلم فلم أتمكن، اكتفيتُ بالنظر لها، وللورود التي تتراقص في الهواء.

***

واظبنا على الاهتمام بالورود قدر الإمكان، لاحظتُ أو لاحظنا أن ثمة عصافير تأتي دون أن نراها لتأكل الورود، نسمع صوتها؛ وعندما نخرج نجد زهرة أو اثنتين قد تقطعتا. كان هذا يحدث دومًا دون أن أهتم، أو ألاحظ، تذكرتُ أن عدد الزهور كان أكثر بكثير من ذلك، ولم يتبق الآن سوى سبع وردات فقط. قمتُ بتعليق ستارة ضخمة بعرض السور كله، وقمنا بشراء زهور جديدة لنكملها سبعًا كما كانت؛ لكن العصافير وجدت منفذًا صغيرًا تستطيع التسرب منه لداخل الشرفة. يزداد معدل أكلها في كل ليلة. في الصباح وجدتُ أنه لم يتبق سوى ثلاث وردات فقط. ثلاث من الوردات القديمة في الأصص الضخمة. كل الجديد قد تقطع.

«لماذا لم نضع الورود الجديدة بالداخل؟» تنظر لي دون جواب. «سأكملها اليوم، ونقوم بوضعها بالداخل».

***

تأخرتُ في العمل. وبائع الزهور القريب من بيتي لم يكن لديه سوى وردتين فقط. أصيصان صغيران ظللتُ أتطلع إليهما ولا أدري ما العمل! نظرتُ للساعة، كان الوقت ينفد ولا أعلم مكان أحد آخر يبيع الورود في المنطقة. لا مشتل آخر قريب مني، ودقائق قليلة ويبدأ حظر التجوال.

احتضنتُ الأصيصين الصغيرين وخرجتُ مسرعًا. كانت السابعة إلا خمس دقائق، أحاول أن أهرول في سيري، وصلتُ لأول الشارع عندما أوقفني الكمين المنصوب. الشارع قد أغلق بحواجز حديدية، وتناثر الجنود أمامه بتوتر. حاولتُ الكلام، وأنا أرفع يدي اليسرى ضامًا الأصيصين

لصدري لأشير للساعة بأنه لا تزال هناك خمس دقائق، وبيتي في آخر الشارع، دقيقتان وسـأكون هناك. أشار لي أحد العساكر بأن أصمت. أدرتُ عينيَّ حولي. عدد غير قليل من بائسي الحظ مثلي يبدو عليهم الهلع.

– يوجد مشتبهٌ فيهم، سنتحقق من هوياتكم ونصرفكم.

كان الضابط المسؤول عن الكمين؛ صوته جهوريًا، حاسمًا غير قابل للنقاش. طلبوا منَّا الاصطفاف في طابور بجانب الحائط وتسليم بطاقاتنا. تشبثتُ بالأصيصين بضمهما إلى صدري. اقترب مني جندي يتأمل ما أحمله، نظر لي قليلًا، قبل أن يقول:

– ماذا في يدك؟

– زرع.

– زرع!!

– نعم. مجرد زرع.

رأيتـه يبتعد نحـو الضابط، يهمس له قليلًا وهو يشـير نحوي قبل أن يتقدَّما سويًا ونظرهما مصوبٌ نحو الأصيصين في يدي.

– البطاقة.

الضابط ينظر مباشرة في عينيّ وهو يطلبها. وضعتُ الأصيصين أرضًا بحرص بين قدميَّ وأنا أبحث في جيوبي عن البطاقة. أخرجتها بيد مرتعشة وناولتها له، أمسكها ونظر فيها طويلًا. طويلًا حتى كدْتُ أسأله عن السبب. ظلَّ ممسـكًا بها وهو يبتعد، أخبرته بأنني أسـكن في نفس الشـارع إلا أنه لم يلتفت. العسـكري أكمل بعده تناول باقي البطاقات من الناس حولي.

انحنيتُ وأمسكتُ بالورود من جديد. احتضنتها إلى صدري، واستندتُ على الحائط.

عاد العسكري دون الضابط، أو البطاقات. وبصوت أجش جهوري أخبرنا بأننا سننتظر هنا حتى الصباح. لوازم الكشف الأمني الذي سيتأخر، وعلى كل الواقفين تسليم كل ما يحملونه. تقدم من أول الطابور وبدأ في تناول الشنط والأكياس التي يمسكها الواقفون. كان يمسك بجوال ضخم يلقي فيه ما يأخذه من الناس دون اكتراث. اقترب مني، لمحتُ الضابط من بعيد ينظر إليّ متابعًا ما سأفعله، ترددت قليلًا، قلت له:

– لكنه مجرد زرع فقط. سأحمله أنا.

– سنأخذه.. لو لم تسلمه لنا سنأخذه في كل الأحوال.. ها؟

كنت أشعر بدوار خفيف مفاجئ ورغبة قوية في القيء. استندتُ على الجدار جانبي شاعرًا بعجزي عن التنفس. أسمع أصوات بعيدة، وأرى الأشياء مهتزة. والعسكري يمدُّ يده ليتناول الأصيصين من يدي دون مقاومة. وقبل أن يلقيهما داخل الجوال قلت له بصوت مبحوح:

– هل يمكن أن ترعاهما جيدًا؟

نظر إليّ نظرة خاوية، وهو يتحرك دون أن ينطق.